في مطلع العام الجديد

بين يـــــدى الله !

للأستاذ على الطنطاوى

الآن استهل العام الجديد

لقد أوشك فجره الأول أن يطلّ على الدنيا ، وأنا حانٍ على مكتبي — أفكر منذ ساعات فى أشياء لا أستطيع أن أصفها أو أعبر عنها أو أحصيها — والليل ساكن تتردد بين جوانحه أنفاس السحر وأنا أنظر من غرفتي إلى صحن المسجد (مسجد أبي حنيفة فى الأعظمية) فأراه مشرقاً بالنور ، مترعاً بالجلال ، ولكنه خال من الناس . وأنظر إلى صحن المدرسة (دار العلوم الشرعية) وحديقتها الخالية ، الحالية بأشجار الموز والنخل والورد والغرفة بينهما لها إلى كل من الصحنين باب ... أريد أن أكتب (مقالة العام الجديد) فلا توائيني الأفكار ، ولا تتوارد عليّ الكلم ، وصدري أغنى بالمعانى منه فى الأوقات كلها ، ولكن ازدحام المعانى على الفكر ، وتكاثر الصور فى الصدر ، يعيق المرء عن الكتابة كما تعيقه قلتها ، كالذى يريد أن يملأ الكأس من (السبيل) إن كان جافاً أو نزراً قليلاً لم تمتلىء الكأس ؛ وإن كان الماء يهدر وينحدر بقوة ويتدفق من فم الأنبوب متدفعاً ، تطاير الماء إلى كل جانب ، ولكنه لا يستقر فى الكأس منه شيء — لأن كل قطرة تطرد أختها — كما تزيح كل فكرة فى رأسى الفكرة التى قبلها لتحلّ فى مكانها ...

* * *

ولقد طالما وقفت هذا الموقف، ففكرت فى الزمان وتفلسفت، وعدت إلى ماضيّ فحزنت ، وفكرت فى المستقبل فأيست ، ثم رأيت ذلك باطلاً كلّه ، كلُّه باطل ! لا الماضى يعود ولا الحاضر يدوم ، ولا المستقبل يأتى . تفنى اللذاذات وتذهب الأحزان ، وتمرّ الأيام بنا فى طريق القبر حتى نبلغه ، فتكون خاتمة المطاف هذه الآلام التى نودّع بها الدنيا ، والتى تنسينا كل لذة ، وكل متعة استمتعنا بها ...

ويا ليت الموت هو الغاية !!

إن الموت بداية لذة لا آخر لها ، أو ألم ماله من نهاية ...

فأين نحن ؟ وفى أى وادٍ من أودية الضلال نتخبط ؟

اللهم إنى أتوجه إليك فى هذه الساعة لتصلنى بك ، وتدلنى على الطريق إليك ، حتى أعرفك فلقد عرفت أن كل شيء سواك باطل !

* * *

ما الحياة ، ما هذه الفترة القصيرة من الزمان السرمدى ؟ وما الزمان فى جنب الله الباقى ؟ وما الجمال الدنيوى ، وما الحب الأرضى ؟ وما العلم ؟ أليس العلم كلّه إدراك سطر واحد من سفر الوجود ؟ وكشف حفنة واحدة من رمال الصحراء ؟ فما أجهل العلم إذن بالوجود ! وما أحمق العلم حين يرفع رأسه ليتكلم فى الموجد وقد خرس عما أوجد ، وليتظر إلى الخالق الباقى ، وقد عمى عن المخلوقات الفانية !

وهل عرف العلم من نحن ؟ ومن أين جئنا ؟ وإلى أين نسير ؟

* * *

وفكرت فى نفسى ، وقديماً قال سقراط ، وكتبت مقولته على باب المعبد فى أثينا : « أيها الإنسان اعرف نفسك » وجاء فى الأثر : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وقال الله جلّ من قائل : « وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » نظرت فى نفسى ، فإذا هى قد كانت قبل أن أكون أنا، فلم أعرف أولها؛ وكل ما أعلم عنها أنى أفقت يوماً من النوم فوجدت طفلاً — أبصرته فى المرآة — فإذا أنا أحبه أكثر من أبى وأمى ، وإذا أنا لا أفارقه أبداً ، فسألت : من هذا ؟ فضحكوا وقالوا : هذا أنت ، هل أنت مجنون !

وكبر هذا الطفل ، أو هذا الذى سمّوه (أنا) ، ونظرت فإذا أنا لا أدرى من أين جاء ، فقلت لعلّى صنعته أنا وأنا لا أعلم ، ولكن هذا (الأنا) ليس كما أريد أن يكون ، لو صنعته أنا لجعلته أبرع جمالاً ، وأشد قوة ، وأحدّ ذكاء ، وأوسع عقلاً ؛ ثم إنه قد وجد قبل أن أكون أنا ، وقبل أن أعرفه ، وعاش مرحلة فى حياته فى بقعة لا أعلم شيئاً عنها ، ولا أصدق أنى كنت فيها ، أأنا عشت تسعة أشهر فى بطن أمى ؟ مستحيل !

فمن أين جاء إذن ؟ هل خلق من غير شيء ؟

ونظرت حولى أفتش عن هذا الخالق ، فرأيت ناساً مثلى ، وما هؤلاء بخالقين لأنهم يحتاجون إلى من يخلقهم ، وحالهم كحالى ، ورأيت جبالاً وبحاراً وكواكب ، ولكن ذلك كله جامد لا حياة فيه . فهل يمنحنى الحياة وهو لا يملكها ؟ هذه هى الطبيعة فهل تخلق الطبيعة شيئاً ؟ ثم إن معنى (الطبيعة) — كما تعلمت بعد — أنها (مطبوعة) فأين الطابع ؟

فتشت عنه فإذا الإيمان به فى أعماق نفسى ، لا أدرى من أين دخل إليها ، ولعله من وضع الخالق الذى وضع السمع والبصر فى الوجه ، والقلب فى الصدر ، والعقل فى الرأس ؟ ووجدتنى أعود فى ساعات الشدة إلى الخالق — الذى يَرى ولا يُرى — أرجوه وأخافه ، وأسأله وأعوذ به ، ووجدتنى أعتقد أنه لا يشبه شيئاً مما أرى ، ولا يحدّه مكان ولا زمان ، لأن الزمان والمكان مخلوقات هو خالقها ، وأنه قديم باق متصف بكل كمال مطلق ، منزه عن النقائص كلها

فآمنت به إيماناً لا يزعزعه (بحمد الله) شك !

* * *

ولكنى لبثت أسأل نفسى :

لماذا خلقت ؟ وهل الحياة (تكليف) علىّ أن أحمله ، أو أن لى الحق بالتخلى عنها وطرحها ؟ فقالت النفس : بل عليك أن تحملها . إنك لست مالك نفسك ولا أنت موجدها ، وإنما هى وديعة فى يدك ، يكافئك صاحبها إن استعملتها فى الذى خلقها له ، ويعاقبك إن اتخذتها وسيلة إلى لذتك ، وأطمت فيها هواك ، وحدت بها عن سبيلها

قلت : فما هى الغاية من الحياة ، أهى الأكل والشرب واللذة؟

قالت النفس : كلا . هذه أسباب الحياة بها تقوم وتبقى ، وليست هى الغاية منها

قلت : أتخدمة الناس ونفع البشر ، وأن أتخذ فيهم حسناً ، وأبقى فيهم ذكراً ، هى غاية الحياة ؟

قالت : كلا . إن الناس لا يمكن أن يحيوا للناس ، وما خدمة البشر إلا عرض من أعراض الحياة وليست بجوهرها. إن المسافر يحرص على راحته فى سفره ، فيتخذ خير المركبات ، ويبتنى أطايب الزاد ، ويصحب خير الرفاق ، ولكن للمسافر وراء ذلك كله غاية من سفره ، والحياة سفر فإلى أين المسير ؟

قلت : لا أدرى !

قالت : أعوذ بالله ! وهل يتميز الإنسان عن الحيوان إلا بأنه يدرك غاية الحياة ؟ أما من يأكل كما تأكل الأنعام ، ويشرب كما تشرب ، ويلد كما تلد ، فهو مثلها أو أضل منها سبيلاً ، وإن عاش فى باريز أو نيويورك !

قلت : فخبرينى أنت ما هى الغاية ؟

قالت : لو سألت الجنين فى بطن أمه وكان قادراً على الفهم والإجابة : ما هى دنياك ، وما هى حياتك ، وما غاية الحياة ، لقال لك إن دنياه هذه الأحشاء الضيقة ، وهذه الظلمة المستمرة ، وإن حياته هذه الجلسة المتعبة ، وهذا السكون الدائم ، وإن غايته .... ليس يدرى ما غايته !

ولو أفهمت هذا الجنين أن هنا دنيا واسعة ، فيها شمس وقمر ، وفضاء رحب ، وبحر وسماء ، وأن غايته أن يبلغها ، وأنه سيعرفها ويراها حقاً ...

لو أفهمته هذا لكذبك وأعرض عنك ، لأنه لا يستطيع أن يتخيل إلا ما هو فيه ، ولا يقدر أن يتصور ماذا يكون البحر والشمس والقمر ؟

فإذا جاء إلى الدنيا وصار رجلاً ، نسى حياته الأولى وكذب بها وقال : إن هى إلا دنيا فيها نموت ونحيا ... فإذا خبره الرسل أن هناك حياة أخرى : حياة ثالثة ، وأنها هى دار البقاء ، وأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأن غايته بلوغ تلك الحياة فى طاعة الله وعبادته ...

إذا خبر بهذا كذب به كما كذب ذلك الجنين ...

أفتكذب أنت بذلك ؟

قلت : لا

قالت : « فتلك إذن غاية الحياة » أن تتصل بالله وتعبده ، وإن تعد نفسك لحياة الخلود

* * *

وعادت النفس تقول :

أن غاية الحياة تتحقق كلها فى الصلاة . فالصلاة اتصال بالله ، واستعداد لحياة الخلود. ثم إنها لذة لا تعدلها إذا أقيمت على وجهها لذة من لذائذ الدنيا ، ولذلك عدّها النبى صلى الله عليه وسلم حين عدد اللذائذ : الطيب والنساء والصلاة ، ليدل الناس على أنها

من جنسها ، وأمها راحة للنفس ومتعة ، وليست تكليفاً شاقاً ، ولا (مهمة) صعبة ، وليست الصلاة ركوعاً وسجوداً ، ورياضة فان ذلك جسمها ، والجسم لا يقوم إلا بالروح ، فاذا خلت منها الصلاة كانت صلاة ميتة ، لا تنهى عن فحشاء ولا منكر ، ولا تشعر بلذة . أما روح الصلاة فهى أنك إذا طهرت أعضاءك بالماء ، طهرت نفسك بالتوبة ، وذلك هو الوضوء الحق ؛ وإذا قمت إلى الصلاة وقلت : الله أكبر ، خرجت من دنياك ، وارتفعت عنها كمن يرتفع فى طيارة ، حتى تراها — كما هى فى الحقيقة — ذرة صغيرة تافهة ... ولم تحس عدواً ، ولا شغلك حب حبيب ولا ملأ نفسك هم ولا غم ، ولا لذة ولا متعة ، لأنك تتوجه إلى الله ، والله أكبر من ذلك كله ، وبيده كل شيء ، فأنت كمن يتصل بالوزير أو الحاكم المطلق ، (ولله المثل الأعلى) فهل يفكر بين يديه بحاجة له عند موظف صغير ، ويشتغل بذلك عن حديث الحاكم أو الوزير ؟

فالصلاة تحقيق لغاية الحياة ، وحياة لحظات فى (الحياة الأخرى) ، ولكن هى اللذة التى لا يقدر لغات البشر على وصفها ، ولكن الناس يرون منها بروقاً خاطفة فى ساعة من ساعات السحر ، ولحظة من لحظات العبادة ، أو ... أو سكرة من سكرات الحب ، أو عند ما يسمعون نغمة ، أو يقرءون شعراً . هذه اللحظات هى التى تدلنا على ذلك العالم . هى أشعة ضئيلة من ذلك النور الباهر ، تذيق النفس حلاوة الآخرة فى الدنيا لتسعى لها ، وترغب فيها .

قابل بين هذه اللذائذ الروحية وبين اللذاذات المادية ... الطعام والشراب ... إنك لتشبع فتصير لذة الطعام فى نظرك صفراً ، والنساء ... إنك لتتصل بهن حتى تأتى عليك ساعات ، ولهن أبغض إليك من كل شيء . على أن هذه الصلة لا تروى غليلاً ، ولا تشبع للنفس جوعاً . إن المحب ليحس وهو يعانق من يحب ويشد عليها بذراعيه أن بينه وبينها بعد المشرقين ، وأنه ليس فى الدنيا صلة مادية تطفئ غليل المحب . فيا بؤس من قنع بالحياة المادية ، وحرم من لذائذ الروح !

ويا ويح من يكفر بما وراء المادة ، وما بعد الحس ، يا ويحه ! أليس فى أثناء نفسه ذكرى ؟ أما فيها أمل ؟ أليس بين جنبيه روح ؟ فكيف ينكر روحه وأمله وذكراه ؟ أيجد ما دليله فى نفسه (أفلا تبصرون ؟)

وكان الفجر يؤذن ، فخرجت إلى المسجد ، وللمسجد فى ساعة الفجر روعة وجلال وأثر فى النفس لا يدركه البيان . وللمسجد أبى حنيفة أوفر نصيب من ذلك ، وأشهد أنى لم أجد فى بغداد كلها مكاناً أحس فيه الاطمئنان وأشعر فيه بالخشوع والتجلى كهذا المسجد ، لا لمكان أبى حنيفة منه ، فان أبا حنيفة لا يضر ولا ينفع ، ولا يكون مؤمناً من يرى فيه ذلك ، أو يتخذ من قبره صناً يعبده ويتمسح به ، ولكن الله قد خص هذا المسجد بهذه الروح لإخلاص أبى حنيفة الإمام الأعظم ، وعلمه وأثره فى الفقه الإسلامى ، وإجماع المسلمين على محبته وإجلاله !

هنالك عرفت الحقيقة الكبرى فى الحياة ، فلن أسأل بعد اليوم : لماذا خلقت ؟ ولن أعيش فى حيرة ، فيارب لا تنسنى هذه الحقيقة بترهات العيش ، وأحلام الأدب ، وضلالات العلم . إن هذه الحقيقة شمس ساطعة ، ولكن سحابة صغيرة قد تحجب الشمس عن عينى الضعيفتين .. اللهم إنى قد فرغت (أو كدت) من شهوة الغنى ، وتلك الشهوة الأخرى ، فهب لى الخلاص من شهوة الأدب ، وحب الشهرة ، وغرور الفكر فان ذلك أشد على ...

اللهم لك الحمد ، وإليك المآب ، وأنت الحى الباقى ، فصلنا بك ، ودلنا على الطريق إليك !

بغداد (الأعظمية) **على الطنطاوى**

الفرنسية
والانجليزية
والالمانية

هى اللغات الضرورية للحياة

فتعلموها جيداً وبوقت قصير ومصاريف زهيدة فى :

مدارس برليتس
BERLITZ

« درس واحد مجاناً على سبيل التجربة »

دروس خصوصية وعمومية

القاهرة : شارع عماد الدين رقم ١٦٥
الأسكندرية : شارع سعد زغلول باشا رقم ١١